أ. بـــوزار حـــبيـــة
كلية الآداب
والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
قســـم الثقـــافة الشعبية
-جامعة تلمسان-

التأويل لدى السابقين قبل الإسلام

مقدمة:

إن ظاهرة التأويل كاتجاه عقلي أصيل له جذور قديمة نعنى لذلك قبل اليهودية والمسيحية والسلام, ظهرت ظاهرة التأويل في الفكر الفلسفي عند اليونان' حيث انتشر التأويل إلى حد بعيد في كل الأوساط والبيئات, فقد عرفت طريقة التأويل الرمزي عند الأورفيتين منذ القرن السادس قبل الميلاد, كما أول اليونانيون نصوص أساطيرهم وقصائدهم الهوميرية تأويلا مجازيا، وتوسعت المدرسة الرواقية في استخدامه,ولجأ الفيثاغوريون إلى التأويل الرمزي حيث ذهبوا إلى التأويل الرمزي حيث ذهبوا إلى تفسير الوجود بالأعداد.

وفيما يتعلق باليهودية والمسيحية, اعتمد فلاسفتهم على التأويل لإدراك الحقائق الباطنية التي تشير إليها نصوصهم المقدسة لاعتقادهم بأن الكتب السماوية تخاطب الناس جميعا العامة والخاصة, ولهذا تجنح في غير قليل من الحالات لاستعمال الرموز والمجازات لأجل تقريب الحقائق.

وقد استعمل مفكرو اليهود التأويل المجازي, حيث كان هناك من يعتقد أن للتوازن معنيين أحدهما حرفي والأخر مجازي, ولا سبيل إلى الوقوف على المعنى المجازي إلا عن طريق التأويل واعتبروه ضرورة.

ولجأ المسيحيون للتأويل المجازي وقد قال **كليما نس الإسكندري**(ق2م)," معنى الكتاب المقدس الظاهر يقودنا إلى الإيمان البسيط, أما المعنى المجازي فيقودنا إلى أسمى درجات الإيمان".

وبناءا على ذلك فإن قضية التأويل تعتبر ظاهرة تاريخية أصيلة وهي تؤكد على الاتجاه العقلي في الفكر الإنساني بعامة وفي الفكر الفلسفي الديني بصفة خاصة.

1- بداية التأويل في الفكر اليوناني:

أ- الأورفية:

يمكن أن نلمس جذور التأويل عند اليونانيين فيما صنعوه بنصوص أساطيرهم وقصائدهم القديمة, التي كان لها قداسة دينية عندهم مثل نص

النحلة الأورفية.

وترى الأورفية أن الإنسان مكون من عنصر إلهي وعنصر أرضي وأن إتباع بعض الطقوس الخاصة بالطهارة يؤدي إلى خلاص النفس مما يسمونه (عجلة الميلاد)," فإذا ما تحررت النفس أصبحت مرة أخرى إلهية وتمتعت ببركة إلهية دائمة". (1)

ويعتمد المذهب الأورفي على التأويل الرمزي" وهو مذهب يقوم على الزهد فالخمر عند الأورفيين مجرد رمز, كما كان رمزا بالنسبة للعقيدة المسيحية فيما بعد..." (2)

وطريقة التأويل الرمزي طريقة قديمة, قد استخدمت في شرح " أشعار هوميروس وتأويلها تأويلا يجعل من صاحبها أرسطط ليسيا ورواقيا و أبيقوريا في أن واحد" . (3)

إن الأورفية تركت أثرا فعالا في مجال التأويل الرمزي فالتعاليم الأورفية تشمل على كثير من الأساطير الدينية والأخلاقية, وكانت الأساطير رموزا لحقائق مختفية ند الأورفيين, والوصول إلى المعنى الباطن والحقيقة العميقة للأسطورة لا يتسنى عندهم لغير المرتاضين الذين يتبعون الطقوس الخاصة بالطهارة, ومن هنا" كانت الحقيقة وقفا على عدد قليل من المرتاضين والحكماء الذين كانوا يستطيعون الوصول إليها عن طريق التأويل الرمزي, إنه للحكيم الانتفاع بالكلمة الرمزية, ومعرفة المعنى المراد بها". (4)

و استمر أثر التأويل الرمزي بعد ذلك عند اليونانيين فيما صنعوه بنصوص أساطيرهم وقصائدهم الهوميرية التي كان لها قداسة دينية عندهم فقد أولوها تأويلا مجازيا" لقد كانت طريقة التأويل المجازي مستعملة شائعة في العالم الإغريقي كانت هذه الطريقة مطبقة على الأساطير الإغريقية والقصائد الهوميرية". (5)

ب- الرواقية:

استعملت المدرسة الرواقية منذ بدايتها طريقة التأويل بأكثر ما يكون التوسع وانتشر قدر التأويل المجازي في كل الأوساط, والبيئات حيث حاول أصحاب الاتجاهات الفلسفية المختلفة بواسطة التأويل أن ينتسبوا مذاهبهم إلى هوميروس " ومن الحق أنه كان يمكن بداهة أن نجد بواسطة التأويل التعسفية لدى هوميروس كل المذاهب التعسفية". (6)

ومما يدل على انتشار ظاهرة التأويل المجازي أن المدارس الفلسفية التي اعتمدت عليه في نشر أفكارها, كان في وسع المدارس المعارضة لها أن ترد عليهم بنفس المنهج التأويلي ومن هنا فإن بعض الرواقيين الذين نظروا إلى هوميروس كأستاذ للأخلاق" نراهم لا يؤولون كتاباته مجازيا, بل يأخذونها حرفيا بعد أن يحذفوا منها بواسطة الطريقة المجازية الأوصاف التي لا يمكن قبولها".(7)

وذلك حتى لا يفسحوا لمعارضيهم في الفكر المجال للرد عليهم بنفس طريقة التأويل المستعملة.

لقد اتخذ التأويل المجازي لدى الرواقيين من الشخصيات أو القصص الأسطورية التي نقلها الشعراء في قصائدهم موضوعا له, واعتمد الرواقيون على التأويل المجازي الرمزي.

ت – الفيثاغورية:

عرف التأويل المجازي عند الفيثاغوريين الذين قالوا بالمجازات العددية, وجوهر المذهب الفيثاغوري يقوم على اعتبار العدد مبدأ جميع الكائنات وهم يرون أن اللغة لا تستطيع أن تنقل إلينا العناصر الأولى للوجود بوضوح, فلجئوا إلى الأعداد لتوضيح هذه العناصر.

ومن هنا يمكن القول على أن طريقة الفيثاغور يين في التأويل المجازي من ناحية الشكل وما يرمز إليه اعتمادا على التأويل.

2- مفهوم التأويل عند اليهود:

أ- الأثر اليوناني:

بدأت حركة التأويل يشق طريقها في نصوص التوراة على يد فلاسفة اليهود الأوائل متأثرين بالثقافة اليونانية التي سبقتهم, وتحديدا بفكرة التعبير الرمزي عن الحقائق خاصة وأن في ألفاظ التوراة عبارات كثيرة يميل ظاهرها إلى المشابهة بين الله والإنسان.

فعمل الفلاسفة اليهود الأوائل" على خلق فكرة عن الإله تعلو على الحس بتأويلهم للنصوص التي يفهم منها سبه بين الله وبين الناس في العهد القديم ".(8)

وكان المعتقد أن التوراة إلا معنيين, أحدهما حرفي والأخر مجازي ولا سبيل إلى الوقوف على المعنى المجازي إلا عن طريق التأويل و اطرح المعنى الحرفي حتى يمكن تفسير ما جاء في التوراة من صور التشبيهات فضلا عن الأساطير وبذلك يمكن التخلص من صعوبات المعنى الحرفي.

ب- التأويل عند فيلون:

يعتبر فيلون الإسكندري أشهر فلاسفة اليهود في القرن الأول الميلادي" وهو خير مثل يوضح أثر اليونان في اليهود في عالم الفكر, فبينما كان فيلون شديد التمسك بقواعد دينه كان في الفلاسفة أفلاطونيا قبل كل شيء وإلى جانب الأفلاطونية, كان الرواقيون والفيثاغوريون المحدثون من أهم العوامل التي تأثر بها".(9)

ذهب فيلون بعيدا في تأويله للنصوص الدينية للكتاب المقدس, إذ حاول شرح كل نصوص التوراة شرحا رمزيا مجازيا للتوفيق بين مبادئ التوراة وما يقول به الفلاسفة اليونان, وبذلك نجده قد قطع شوطا بعيدا في

التأويل الرمزي للتوراة مثلما كان الإغريق يفسرون هوميروس منذ زمن بعيد وفق المنهج الرمزي.

و تصوره للوجود هو الذي يبين لنا منهجه في التأويل ونقطة البداية في ذلك هي الله.

واعترف فيلون بفكره الوسائط وهو بصدد تأصيل المنهج المجازي في التأويل وفكرة الوسائط عنده ترتبط بالإله المتعال المفارق, وهذا الإله المتعال معني بالعالم الذي خلقه ولكنه يدبره عن بعد.

و هدف فيلون من وراء منهجه في التأويل " هو تحويل التاريخ اليهودي التوراتي إلى مذهب للنجاة أو الخلاص الأخلاقي, حتى أنه كان يتأول رسوم المعابد محاولا إيضاح المذهب الأخلاقي المعروض بذلك الرسم". (10)

حيث كان تفكيره لا يظهر بطريق مباشر, ولكن فقط في شكل تأويل دائم لنصوص التوراة, وهو بذلك يكون قد اصطنع منهج التأويل الرمزي ليواكب فترة التعبير بالرمز عن الحقيقة عند الإغريق, و التي استعملوها في شرح أساطيرهم وقصائدهم الهوميرية.

3- دلالة التأويل عند مفكري المسيحية:

أ- الأثر اليوناني:

لم تعرف المسيحية التأويل في بدايتها غير أنه في القرن الميلادي الثاني تغيرت البيئة الدينية المسيحية تحت تأثير الثقافة اليونانية.

بدأت المسيحية تجدد رؤيتها في معرفة الكون متبصرة بنظام عقلاني كان قد بدأ منذ زمن بعيد عن اليونان, وابتدأ تغير فهم المسيحية لتغيرات الإنجيل.وأخذ رجال الفكر المسيحي يحملون (نبوة عيسى) وأنه (كلمة الله),

على معنى يخالف فهم العامة, وحملوا هذه الألفاظ على المعنى غير المتبادر إلى الذهن, وغيرالظاهر في الدلالة متأثرين بالميراث اليوناني في هذا المجال, وهنا بدأ التأويل يعمل عمله في فهم جديد للتعبيرات المسيحية في الكتاب المقدس. فأولت القصائد, وكثر الجدل والصراع حول التأويل فظهرت نتيجة ذلك مدرستان: * المدرسة النصية.

* المدرسة التأويلية .

ب- التأويل عند كليمانس الإسكندري:

هو أول مسيحي أسكندري نادي بأن معنى الكتاب المقدس الظاهر يقودنا إلى الإيمان البسيط, أما المعنى المجازي لآيات الإنجيل فيقودنا إلى أسمى درجات الإيمان, وقد استخدم كليمانس الفلسفة اليونانية في شرح الآثار المسيحية وكان كليمانس يشير إلى أن " طريق الوصول إلى معرفة الوحدة الخالصة- الله- يمر عبر سلسلة من التجريدات".

وتلك التجريدات هي الأساس في عملية التأويل المجازي لذا كان يمر على عملية تجريد الرسوم في لوحة قابس.

ت- أور يجنس المسيحي:

يعتبر المؤسس الحقيقي للمدرسة العقلية المسيحية في القرن الثالث الميلادي وهو يرى أن الكتاب المقدس له ثلاثة معان: معنى حرفي — معنى أخلاقي والمعنى الثالث هو المعنى الرمزي وبهذا يكون قد شرح وأول نصوص الإنجيل والمعنى الثالث هو المعنى الرمزي وبهذا يكون قد شرح وأول نصوص الإنجيل بثلاث طرق, الأولى: كان يقدم شرحا حرفيا للعامة والمبتدئين.

الثانية: كان يقدم شرحا أخلاقيا للمتقدمين.

الثالثة: كان يقدم شرحا تأويلا رمزيا للخاصة.

وكان يرى أن التأويل ضرورة لابد منها حيث تكون مسائل العقيدة غير واضحة, وحين يظل في النص الديني شيء لا يمكن بيانه, عندئذ تبدو العلاقة بين النص ولتأويله ضرورة عقلية ملحة, وقد ألحت هذه الضرورة على الفكر اليوناني القديم فأثمرت التأويل كاتجاه عقلي أصيل تتابع تأثيره فطال جميع أصحاب الأديان.

الهوامش

1- د. محمد فتحي عبد الله: النحلة الأورفية, أصولها وأثارها في العالم اليوناني, مركز الدلتا للطباعة والنشر, الإسكندرية 1990,ص1.

2- د. محمد فتحي عبد الله , المرجع نفسه , ص 27.

3- د. محمد عبد الرحمان مرحبا: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية, دار منشورات عويدات, بيروت 1983 م ط 3 , ص 222.

4- إميل برهييه, الآراء الدينية والفلسفية لفيلون الإسكندري ترجمته محمد يوسف موسى, د عبد الحليم النجار, ص 15 .

5- إميل برهييه, المرجع نفسه, ص 21.

6- إميل برهييه, المرجع السابق , ص 62.

7- إميل برهييه, المرجع نفسه , ص 68.

8- إميل برهييه, المرجع السابق , ص 66.

9- إميل برهييه, المرجع نفسه , ص 86.

10- د. أميرة حلمى مطر: الفلسفة عند اليونان, دار مطابع الشعب القاهرة 1965,ص228.